عن الخصخصة وقصقصة الأجنحة!

هشام نفاع*

■ من الجوانب المثيرة للتأمل في فشل عدوان حكومة اسرائيل الأخير على لبنان هو ذلك المرتبط بالخصخصة وثمنها. ولا يقلل هذا من الجوانب الأخرى طبعا. فلطالما تفاخرت النخب الاسرائيلية بالخطوات التي قطعتها، برشاقة عالية، في مسار تدمير القطاع العام بكل ما يعنيه الأمر، ولكن فاتتها مسألة الثمن غير المباشر. المفارقة، أنها لم تتوقع بالمرة أنها ستضطر لدفعه في آخر الميادين المتوقعة: الحرب. الميدان الذي اعتادت إتقان سبر غوره ببراعة دموية شديدة. بل أرادت أن تظن أنها ستظل متفوقة فيه الى الأبد وكأن عجلة التاريخ ستتوقف عن الدوران بمجرد صدور أمرٍ واحد من الجنرالات.

قبل أيام، ولشديد الأسف، وجدت نفسي معجبا ببضعة سطور كتبها الصحافي رون بن يشاي، العضو البارز في كتيبة ببغاوات الجيش. فقد كان تسلل بعد أن أرخى الليل سدوله بجواز أجنبي الى لبنان وعاد بانطباعاته الى القراء. وضمن مقالة بلغ تعدادها آلاف الكلمات، نشرتها «يديعوت أحرونوت» يوم الجمعة الماضي، كتب في سطرين، باعتراف لافت، أنه غير قادر على إخفاء انفعاله وتقديره للقدرة التنظيمية المجتمعية للمقاومة اللبنانية، خاصة ذلك الجانب المرتبط بالإسراع الى معالجة مشاكل الناس المتضررين من الحرب، بشكل فعلي وفوري ومنظم. وأردف: «البحر هو نفسه، لكن العرب ليسوا أنفسهم». وهي مقولة مشتقة مما اعتاد المتشدد اليميني، رئيس الحكومة الأسبق يتسحاق شمير، ترديده لتبرير رفضه لأية تسوية مع الفلسطينيين وبقية العرب.

مقولة الصحافي المذكورة تشير الى سخافة أن يظل حكام هذه الدولة مستهترين بالعرب، فيما لم يتمكنوا هم من حماية مواطنيهم في الشمال الذي أشعلوه بأيديهم العسراء. حديث الصحافي مُفرح، بل مثير لبعض التشفي اللذيذ من الغرور والمغرورين! لكنه يخفي وراءه الكثير ايضا. لأن قباطنة المؤسسة يعرفون جيدا أن ما انهار في هذه الحرب لم يكن الخطط العسكرية ولا التخطيط السياسي فحسب. فهذه كانت كالمؤخرة المكشوفة على الملأ، والأمر لا يحتاج الى تحليل. بل إن ما تآكل بل صدئ هو تلك «الإسرائيلية التي كانت مرة»، والتي اعتاش عليها الشعور الاسرائيلي بالتفوق لعقود.

فلم يكن الفشل في لبنان 2006 مسألة عتاد أو ذكاء معطوبين. فالعتاد الاسرائيلي التدميري لا يزال يصنف في الدرجات الأولى بفضل العراب الأمريكي. ولا أعتقد أن التخطيط السياسي أيضا، مر طفرة في عودته للوراء، ولم يتعرض بالطبع الى هزة أخلاقية جعلته يغير فرضياته أو أهدافه.

صحيح أنه كان تخطيطا مغرورا حد الحمق، لكن هذا ما ساد سابقا أيضا. لا جديد هنا. لكن المسألة (في السياق الراهن) هي مسألة انهيار منظومة الأخلاقيات العرقية التي كانت تلملم الإجماع الاسرائيلي الأبيض وتؤلفه. فحتى الثمانينيات، كانت مشاريع ومخططات الدولة مكفولة بنوع إثني من التعاضد والتكافل الاجتماعيين. هذا الأمر كان على الدوام يهوديا أشكنازيا حصريا. لم يشمل العرب بالطبع، وبالكاد استوعب الشرقيين. لكنه كان واحدا من حجار زاوية القلعة الاسرائيلية. ضمن ذلك التكافُل، كان المُزارع الاسرائيلي، مثلا، يملك علاقة مع الزراعة والفلاحة تتعدى الأرباح المؤسسة عليها، لأنه رأى فيها جزءا من مقومات قوة مشروع الدولة. كان مصنع منتجات الحليب مركبا هاما في أسطورية الفخر القومي الاسرائيلي، وليس شركة تُقاس بمصطلحات النجاعة وأرقام البورصة. كان الخبز مسألة خاضعة لشيء من العيب، وليس كما بات اليوم، سلعة عادية تنعدم ما يتجاوز قيمتها السلعية ويتم رفع سعرها بمنتهى الفظاظة، حتى أقنان الدجاج اتخذت طابعا قوميا. يومها، حين كان حكام اسرائيل يقرعون طبول الحرب، كان مجتمعهم يشعر بوحدة الحال والشراكة بمفهوم رغيف الخبز وكيس الحليب والحمضيات الاسرائيلية، وليس فقط بالمفاهيم الشوفينية التي لا تسندها دعائم معيشية ملموسة. لأن المشروع الصهيوني كان لا يزال رومانسيا، وكانت شبكة العلاقات المجتمعية ذات جوانب شبه اشتراكية إثنية، أو تشارُكية على الأقل. كان القطاع العام جزءا من المناعة المجتمعية ومن العتاد الاستراتيجي المعنوي وبالتالي مركبا في قوة الردع إياها. لكن مع تعمق الخصخصة (التي يسمونها «ثورة» مع أنها ليست سوى انقلاب ذاتي كالهدف الذاتي في كرة القدم)، انهار قسم خطير من كل ذلك. فالفقير في كريات شمونة وصفد وحيفا رأى أن حماية سلامته ليست مفهومة ضمنا. ما يضمنها ليس «الدولة» بل حسابه البنكي الخاص. فمن استطاع سحب آلاف الشواقل أمكنه الهرب الى ايلات، أما من يعيش «من اليد الى الفم» فلم يكن أمامه سوى الانتظار. إنتظار الصاروخ أو انتظار انتهاء الحرب أو انتظار فرَجٍ ما من السماء. لم يعد مكان لمفاهيم الرفاه ولا الدعم. الدولة انسحبت من هذا الميدان. فهي تعيش اليوم في الميدان الدولي، الذي تنال فيه مديحا واستحسانا كلما أثبتت عمق ولائها للعولمة الرأسمالية. أحد شروط هذا الولاء هو تدمير القطاع العام وخصخصة كل ثابت ومتحرك فيه. وهو ما تنازلت عنه نُخب المؤسسة الاسرائيلية بكثير من الرغبة والمتعة جهارا. يكفي تذكر بنيامين نتنياهو وهو يتحدث عن «الاحترام» الذي تحظى به سياسته الاقتصادية اليمينية، فيما كانت مستنقعات الفقر والبطالة تتسع وتتعمق. يكفي الوقوف أمام طروحات عمير بيرتس الشهيرة ورؤية كيف أنها تبخرت وسط اشتعال نيران الغرائز والحرب. هذا السياسي الشرشوح الذي وعدنا بأننا لن ننسى اسمه قد أصاب بالفعل. فلن ينسى أحد بيرتس السياسي الأحمق الذي لم يفلح في أن يكون مارشال وأفلس في صفته كقائد اجتماعي. هو ليس كالغراب الذي حاول تقليد مشية الحجل (الدرج) فلم يعد يعرف كيف يمشي، بل كالغراب الذي حاول تقليد الضباع، فتنتف ريشه وتكسرت أجنحته!

بين استنتاجات الحكومة الاقتصادية بعد الحرب جاء: خصخصة خدمات الدولة للمعاقين واستكمال خصخصة سلطة البريد وتقليص مخصصات ضحايا البطالة وضرب ضمان الدخل وحتى بيع شركة الأوسمة وقطع النقد للقطاع الخاص. كيف ترتبط هذه الخلاصات بنتائج الحرب؟ رباطها وثيق: فهذه فرصة لتكسيح ما تبقى من خدمات اجتماعية وإدارة عامة بحجة نتائج الحرب. إسرائيل التي لم تفلح هذه المرة في نقل الحرب الى «أرض العدو» خلافا لعقيدتها العسكرية الثابتة، أدارت مؤخرتها لفقرائها في الشمال. وهي تسعى اليوم لجعلهم يدفعون ثمن الخروج من مأزقها الاقتصادي. أهذه «دولة اليهود» هذه، أم دولة الحُكام والرأسماليين اليهود، عملاء واشنطن وسياساتها؟ متى سيفهم الأفراد اليهود ما يجري لهم، وباسمهم؟!

قد يقول قائل: حسنا إذن ان اسرائيل تخصخصت، فها هو ذلك يساعد في إفشال نواياها العدوانية. لكن هذا سيكون سطحيا. لأن عملية تدمير القطاع العام جاءت مترادفة مع غوص مؤسسة هذه الدولة أعمق مما كان في المشاريع الامبريالية. وهي مشاريع عنيفة على الاتجاهين، نحو الداخل ونحو الخارج. أشبه بدالتين مترادفتين: واحدة تشير الى الذهاب عميقا في رأسملة الداخل والتنصل من المسؤولية عن المخلوق المسمى مواطن عبر تسليمه لرحمة السوق الحرة المتحررة من أي عقال أو عيب أو أخلاق، والثانية نحو توسيع وتعميق الخدمات للمشاريع الامبريالية المتوحشة، إقليميا ودوليا. ومع احتلال الليبراليين الجدد لواشنطن، وصلت الأمور في اسرائيل التابعة الخادمة درجة انفلات جنونية. الانفلات المجنون خطيرٌ على المحيط والجوار والجار، ولكنه خطير أيضا على المُنفلت نفسه. من الخطأ نسيان هذا. وفي تموز/ يوليو 2006 رأينا الدليل. يا لجمال غباء الأقوياء. ويا لمصائب المستضعفين المجرورين خلفهم.

كما قيل، إن ما حدث في هذه الحرب ليس فقط أن خطة عسكرية معينة فشلت تخطيطيا أو ميدانيا، ولا أن مجموعة المقاييس والاعتبارات التي بنيت بحسبها سيناريوهات السياسة اتضحت كمخطوءة. هذا واضح. بل إن السوس كان قد نخر عميقا في الفروع والجذع وحتى الجذور حتى انفرط العقد الإسرائيلي. هذه المرة ضرب التقاطب، رمزيا وفعليا، الجيش أيضا. بعض الجنود ممن تمت مقابلتهم في الصحافة هاجموا ضباطهم الكبار لأنهم أداروا المعارك من مواقع آمنة تعج بالتقنيات الرقمية العالية، ولم يرافقوهم في المعركة. بعضهم قالها صراحة: لقد ذهبت مقولة «الفرق بيننا وبين العرب» أدراج الرياح. فالأسطورة العنصرية الاسرائيلية نصت على أن المقاتل الاسرائيلي يمشي خلف ضابطه الذي يتولى مقدمة الجبهة، بينما يتم ارسال الجندي العربي للجبهة فيما يقف ضابطه خلفه. هذه المرة كانت اسرائيل عربية جدا بمفهوم النظام العربي الفاسد، مع فارق وحيد هو أنها رأت في هذا تطورا تقنيا وفقا لآخر صرعات السوق الحرة المُمكننة والمؤتمتة والمقننة.

لا تنحصر نتائج الخصخصة وتدمير القطاع العام على الاقتصاد بمفهومه الحسابي الجاف. لأن الاقتصاد يتجاوز ذلك أصلا. فهو سياسي ـ اجتماعي بامتياز. سواء في تأثيره على بلورة وتغيير مفاهيم المواطنة والعلاقات بين المواطن والدولة أو على اعادة صياغة العلاقات الاجتماعية المتبادلة من حيث التضامن المشترك. البلاغ الذي يقف من خلف الخصخصة هو أن الدولة تنسحب وتفسح المجال للأثرياء والأقوياء بتسلم زمام الأمور. وحين تطال هذه العملية خدمات أساسية فلا يعود أي معنى لالتزام الدولة تجاه مواطنيها. فلا الضمان الاجتماعي ولا الرفاه الاجتماعي ولا جودة حياة الفرد تعود جزءا من العقد المفترض بين المواطن والدولة. لأنها ترسله للاعتماد على نفسه وعلى طيبة قلب قوى السوق التي لا ينبض قلبها وينفعل سوى على الربح. وكل هذا طبعا باسم النجاعة والتنجيع والجدوى وحسن الادارة. لو صحت هذه المزاعم فلا يتوجب على اسرائيل سوى خصخصة الجيش، لأنه ظهر في وضع إداري مزرٍ! فهل سيخصخصونه أيضا؟!

ملاحظة: إذا كانت تبعات الخصخصة تُضعف من يتورط في حرب عادية، فما بالنا بحكومة شنت حربا مبيتة عدوانية تم تنفيذها أكثر شيء عبر جرائم الحرب؟!

في اسرائيل يحبون الكلام كثيرا عن الدولة. كلما ثارت قضية يهرع الجميع، سياسيين وغير سياسيين، للتغزُل بالدولة. باتت أشبه بالوصفة السحرية القادرة على محو كل المشاكل. قُلْ: «الدولة، الدولة..» بتلك اللهجة الانفعالية ثقيلة الدم وكل شيء سيصبح على ما يرام. بالطبع هذا هُراء. فهي نفس الدولة التي تدير ظهرها لمواطنيها في أساسيات عيشهم. في الحرب الأخيرة فجوا رؤوسنا لمدة 24 ساعة يوميا باللحوسة لـ«الجبهة الداخلية» ومناعتها. لكن هذه «الجبهة» لم تأكل سوى الكلام الشفوي. أكلت كميات تجارية من «الهوا»، وهي تنتظر الحسم والـ(نوك آوت) المغرور الذي وعدوها به. ولكن عبثا. فالجنود أيضا، أولئك الشبان الذين تم الزج بهم في مقامرة إمبريالية الأهداف، وفاشلة، كانوا يشكون حتى من قلة الأكل. وغالبا ما اعتمدوا على تبرعات من جهات خاصة.

لا يميل قوم البشر عادة الى استيعاب ما يكاد يخز عيونهم لشدة جلائه وقربه من أنوفهم. وإذا كانوا من ذوي الأنوف المغرورة تصبح الطامة طامتين وأكثر. كان على جميع هؤلاء أن يفهم مسبقا بأن من يدير ظهره لفقير ومحروم من العمل ومريض بالسرطان وغريق في مستنقعات الضائقة، سيدير ظهره للجميع لاحقا. حتى لقرة عينه من الجنود. فالأخلاقيات لا تتجزأ. والدولة التي انقلبت على التزاماتها الاجتماعية، يُتوقع منها كل شيء. هنا بالضبط يقع الربط بين الهرولة في صحراء السوق الحرة وبين ترك العطشى والجياع والمستضعفين يموتون وحيدين تحت كثبان الرمل.

(لقد تدرب الاسرائيليون لعقود على كنس المشاعر الانسانية البسيطة تجاه الفلسطيني. يبدو أن هذه المكنسة التي تزيل انسانية الآخر، تتصرف كالمسخ لاحقا، وتبدأ بنفسها بكنس إنسانية صاحبها تجاه قومه ونفسه إلى أن تتخلى الذات عن إنسانيتها. لذلك، فعلى الانسان الذي يريد الحفاظ على نفسه أن يسارع للتخلص من هذا النوع من المكانس المخيفة. العملية بسيطة: ليستبدل الاسرائيليون هذه المكنسة بأخرى؛ بمكنسة تنظفهم من موبقة الاحتلال والاستعلاء البشع مثلا).

لن يسارع أقطاب الاجماع العرقي الاسرائيلي للاعتراف بأنه يتآكل، لكن الدلائل صارخة. أحد الاحداث المثيرة للقشعريرة خلال الحرب هو اعتراف السلطات بأن عشرات المسنين العاجزين والمقعدين تُركوا وحيدين في بيوتهم في الشمال. وعندما جاءتهم النجدة بتأخير كبير كان بعضهم قد قضى حاجته تحته لأيام متتالية. مُرعب مؤلم ومُهين. هناك مكان للسؤال: أين كانت أجهزة الدعم الاجتماعي؟ صحيح، لقد تآكل معظمها فداء لثورة الخصخصة المجيدة. لقد اختفت خلف الديماغوغيا الفارغة عن «مناعة الجبهة الداخلية». هذا هو الثمن، هذه هي النتيجة، فهل سيستيقظ الاسرائيليون؟ لا توجد مؤشرات في الأفق القريب. لأنه، مرة أخرى، هناك ما يخيم على الأفق. هناك غرائز وهم التفوق العسكري الفارغ. هناك الاستعلاء البشع على أهل هذه المنطقة. هناك وصفة التغزل بالدولة؛ نفس الجهاز الذي يرمي بالمستضعفين الى الجحيم. لكن الحقيقة أن ذلك لم يقتصر على المستضعفين فقط. فالطبقات الوسطى، التي يحب البعض اعتبارها «الصمغ» الذي يلصق المجتمع، رأت أبناءها الجنود يُتركون لمصير مؤلم.

فجهاز الجيش الذي أزكمته التقنيات الحديثة، لم يعد يرى وجوه جنوده كما يبدو. فالطائرة عالية التقنيات والأسلحة شديدة الذكاء صارت أهم من الجندي، الفرد، الانسان. هي ليست وسائل لدعم الجندي في مهمته الملقاة عليه، بل على العكس. هي ما يتوجب على الجندي خدمته. الانسان في خدمة الآلة، الماكينة وشريط الانتاج. هل يذكر هذا بشيء، بالرأسمالية حين تتوحش مثلا؟ لقد تحدث عدد من الجنود في تقارير صحافية عن نقمتهم على سلاح الجو، الذي كثيرا ما تركهم دون عتاد أو مؤن أو حتى ماء. كانت لهجتهم شبه طبقية: جنود الوحدات الراجلة ينظرون بنقمة نحو الجنود الطائرين في السماء. يتهمونهم بالغرور والتعجرف. يسمونهم «الزرق المغرورين»، في اشارة الى لون زي سلاح الجو. الصورة مغرية بالتأمل: أهل «تحت» ضد أهل «فوق». في هذه الاستعارة يكمن الكثير من المغازي عن اسرائيل التي تنغلق نخبها على نفسها، بينما هي تحول المواطنين البسطاء الى مجموعة أغراض وظيفتها خدمة نوع محدد من الاقتصاد الذي لا يزرع في مجتمعها سوى المزيد من الاغتراب. مجتمع كهذا لن يصمد في أي حرب، مهما توحشت القوة، وكم توحشت..

بعد درس لبنان الأخير، هل ستتبلور اسرائيل جديدة؟ ومن سيبلورها: أهؤلاء السياسيون عديمو القامة القيادية والاخلاقية، أم تلك النخب المثقفة التي تعيش في مكاتبها وردهاتها وأحيائها وبلداتها المسورة، والتي سجلت رقما قياسيا في سهولة الزحف والانضمام الى نعيق الحرب الأخيرة؟ فمن الذي يهدد فعلا بدمار اسرائيل، أليست اسرائيل نفسها التي تعتدي على الجوار وتأكل ابناءها؟ ويُقال هذا مع حفظ «الاحترام» لكل كميات الديماغوغيا الرخيصة التسويق التي تنعب وتنعق وتفح بها الألسن الحاكمة: إيران، حماس، سورية، حزب الله.. وحتى مصر، كما يثرثر يوفال شطاينتس.. ما سيدمر إسرائيل هو سياسة إسرائيل. تجاه الخارج وتجاه الداخل أيضا. وما لم يستفق الإسرائيليون، فلن يكون أمامهم سوى لوم أنفسهم. لم يعد مكان للأكاذيب مهما بلغت درجة إحكامها. فالأفق انسد بالأكاذيب الاسرائيلية البائخة. الكرة ليست في ملعب العرب. إنها في ملعب اسرائيل. ولا يزال هناك مكان للخشية من أن يقرر سلاحها الجوي المتفوق النيل من الكرة نفسها بقنبلة ذكية جرى تسولها من واشنطن مقابل الإنصياع لأوامر جديدة بالخصخصة والتنجيع وإزالة «العوائق» أمام تحرُر السوق.. فلشدة الذكاء الرقمي المحوسب المنفتح المفتوح على أقصى اتساع الساقين، لم يظل في إسرائيل أي هامش للعقل. فهل يرن جرس الإيقاظ، وهل سيكون مَن يستيقظ أصلا؟ الجواب ليس لدينا.

* كاتب من فلسطين

مهزلة الأعلام

د. محي الدين عميمور*

■ عرف الوطن العربي، منذ أن كانت هناك دول عربية، مهزلة تغيير الأعلام الوطنية بخفة لا تصدق، حتى أن بلدا عربيا غير علمه ثلاث مرات في نحو عقد واحد، وليس صحيحا أن ما يُسمّى بالدول الثورية أو التقدمية كانت هي السباقة في هذا المجال، فقد تغير العلم المصري مثلا مرتين أو ثلاثا قبل ثورة يوليو 1952، لكن المؤكد أن ممالك الوطن العربي وإماراته ومشيخاته كانت حريصة على علم الاستقلال الأول، تماما كدول المغرب العربي التي لم تغير أعلامها الوطنية إطلاقا، باستثناء المثال الليبي الذي تغير فيه العلم أكثر من مرة إلى أن أصبح اليوم مجرد مساحة خضراء لا تحمل أي رمز أو إشارة.

لكن المثال الكردي اليومي يجسد إجراء يجب التوقف عنده، حيث أنه قرار عملي بالانسلاخ عن القطر العراقي، بدأت مقدماته بمنح الحكم الذاتي للإقليم في عهد الرئيس صدام حسين ولكنه أخذ بعده الانفصالي الحقيقي بفضل الحظر الجوي الذي فرضته الولايات المتحدة على شمال العراق وجنوبه، وهو الجنوب الذي تجري اليوم محاولات حثيثة لكي يكرر تجربة الشمال الناجحة، والتي تحرص قياداته على الترويج لها بكل وسيلة ممكنة، بغض النظر عن نسبة الديموقراطية واحترام الرأي الآخر في استعمالها، وكل هذا يتم بتشجيع ممن يريد إيجاد نقطة ارتكاز أخرى في المنطقة العربية بجانب إسرائيل.

وهكذا فإن قرار السيد مسعود البارزاني رئيس إقليم كردستان وابن المُلاّ مصطفى البارزاني حليف إيران وإسرائيل السابق، برفع العلم المُسمّى علم كردستان بدلا من العلم العراقي (والذي تغير هو أيضا منذ العلم الملكي ذي النجمتين ومرورا بعلم عبد الكريم قاسم) لا يجب أن يُشكل صدمة لأحد، خصوصا وقد تأكد اليوم أن الحكومة المركزية في العراق، وبغض النظر عن أن سلطاتها الحقيقية قد لا تتجاوز المنطقة الخضراء، لا تملك أي وجود في الشمال باستثناء أوراق العملة التي يتواصل التعامل بها على ما أعتقد، وربما إلى حين، ومن المؤكد أن ذلك سيكون إلى حين.

ولست أدري لماذا أتذكر الآن قضية الطائرات المختطفة التي يحاول مختطفوها المساومة لانتزاع فوائد شخصية واسعة المدى.

والواقع هو أن اختيار العلم الكردي بقرار فردي لم تستشر فيه بقية القيادات العراقية ولم يُعرض على البرلمان المركزي يعني ببساطة أن المنطقة ترفض الانتماء إلى نفس العراق الذي ينتمي له الآخرون، حيث أن العراقيين من أبناء هذا الجيل، ورغم كل مآخذهم على النظام السابق، لم يألفوا غير العلم رباعي الألوان، وهي، وكما يقول الأستاذ الخزاعي، ألوان عراقية استعملت قبل الإسلام، ولا علاقة لها بما يُسمّى الثورة العربية الكبرى، أي عملية النصب التاريخية التي قام بها لورنس في بدايات القرن العشرين لتجنيد العرب والأعراب ضد الإمبراطورية العثمانية لمصلحة الإمبراطورية البريطانية.

وإذا أضفنا إلى ذلك وجود لغة خاصة للمنطقة تستعمل على حساب اللغة العربية، وإذا تذكرنا أن اللغة هي وطن، فإن تمسك الأكراد بلغتهم على حساب العربية، هو رفض للانتماء العربي، وهو ما أكدته السيدة حرم رئيس الجمهورية العراقية مؤخرا عندما ألقت خطابها في لندن باللغة الكردية، التي تكتب حتى الآن بالحروف العربية، والأمل ألا تسير خلف دعاة البربرية في المغرب العربي الذين يصرون على كتابة لهجاتهم بالحروف اللاتينية، حيث لا تكفي حروف «التافيناغ» للدلالة على كل معانيها، ومنهم شرائح تمارس اليوم عملية تطهير واسعة لاجتثاث كل الكلمات العربية التي تمتلئ بها اللهجة المعنية، وأحيانا باستعمال كلمات فرنسية محرفة، فالهدف الرئيسي هو الابتعاد كل الابتعاد عن اللغة العربية.

وليس سرا أن هناك مخططات إسرائيلية تشجع كل تفتيت للوطن العربي، وبعضها نشر والبعض الآخر ما زال حبيس الأدراج.

وأتوقف لحظات لأقول بأن قضية اللهجات أو اللغات في المغرب العربي تختلف تماما عن وضعية اللغة «الكردية»، إذ أن هذه ترتبط بعرق يختلف عن العرق العربي، أما اللهجات البربرية أو الأمازيغية فإنها لا ترتبط بمثل ذلك، حيث أن الأغلبية الساحقة من سكان الشمال الإفريقي هم من الأمازيغ الذين عربهم الإسلام، والحديث بلغة ما لا يعني أكثر من أنه استعمال للغة تعلمها الإنسان في طفولته الأولى، بمعنى أنها ليست دليل عروبة أو أمازيغية، فأكثر من ثلاثة أرباع الجزائريين يستعملون العربية بشكل منتظم بمن فيهم من يعرفون لهجات أمازيغية، وهناك قلة تتمسك بلهجة بربرية تزاوجها باللغة الفرنسية من منطلق الكره للعربية، والذين قننوا النحو العربي هم أمازيغ، والذين فتحوا الأندلس هم أمازيغ أيضا، مثلهم مثل رجال الثغور الذين خاضوا حرب الثلاثمائة سنة ضد إسبانيا.

وكان المنطق الذي سار عليه أبناء المغرب العربي هو الالتزام بقول رسول الله عليه الصلاة والسلام من أن العربية هي اللسان.

وأعود إلى صلب الحديث لأقول بأن تصرف القيادات الكردية لم يكن في مستوى العظمة التاريخية لقائد كردي عظيم مثل صلاح الدين الأيوبي، وحتى إذا لم يكن من حق أحد أن يفرض على الأكراد ما يتناقض مع إرادتهم، وأن يتجاهل الاستجابة لرغبة الشعب الكردي في الانفصال عن بقية العراق لتكون لهم دولتهم، فمرفوض أن تنتهز قياداتهم ضعف الدولة العراقية وهوانها وتتعامل معها بطريقة: «ما هو لنا نأخذه كاملا لنا، وما هو لكم نقسمه كاملا بيننا»، وهو ابتزاز مفضوح واضح يستند للحراب الأمريكية وللإعلام الموجه.

ومن جهة أخرى فإن واجب الأخلاق والرجولة والوطنية يفرض على المرء الانسجام مع اختياره وتحمل مسؤوليته إلى النهاية، وأتصور، وكردستان تتجه نحو الاستقلال، أن على المسؤولين الأكراد في بغداد ألاّ يضعوا قدما هنا وأخرى هناك، وأن يتخلوا حالا عن مناصبهم المركزية السامية، وخصوصا رئاسة الجمهورية ووزارة الخارجية، لأن عدد مواطنيهم في الوسط والجنوب لا يعطيهم حق التمسك بها، وإن كان لا يحرمهم من مناصب تنسجم مع نسبة وجود مواطنيهم الذين فضلوا عدم الهجرة إلى الشمال.

كما أن على الحكومة المركزية إلغاء الازدواجية اللغوية التي فقدت مبرر قيامها في بغداد، بعد أن اختار الشمال طريقه، وهكذا يصبح العراق عربيا مائة في المائة، وهو ما يجب أن تتمسك به كل المذاهب الدينية التي تدرك بأن مخطط التفتيت كارثة على الجميع.

وما يحدث الآن هو استكمال لتقسيم العراق بزعم تحقيق الديموقراطية عبر الفيديرالية، وهي مغالطة مضحكة لأن الفيديرالية تعني مركزية كاملة في الدفاع والأمن والدبلوماسية والمالية، ومعروف أنه ليس من حق قوات الجيش العراقي الوجود في الشمال بأي صورة كانت، وأن «البشمرغة» هي التي تتولى تطبيق إرادة القيادات الكردية، التي يُقال أن بعض قياداتها تتعاون مع الموساد وتحتمي بالاحتلال، وهو ما يُعطي احتمالات رهيبة للإجابات على التساؤلات المتعلقة بعمليات الاغتيال التي يعيشها العراق ولا يعرفها الشمال، وحيث الحكومة المركزية، إدارة وجيشا، مغيبة تماما.

وليس سرا أن عمليات الاغتيال تتجه أساسا لمن يناهضون الاتجاهات الفيديرالية الساذجة، التي لا تدرك أن قوة الفيديرالية لا تعني إضعاف سلطاتها المركزية، والأمثلة أكثر من واضحة سواء في الولايات المتحدة أو في باكستان أو نيجيريا وغيرها.

وأعترف بأنني أحسست بخيبة أمل كبيرة وأنا أتابع موقف رئيس الجمهورية الذي حاول الالتفاف حول مهزلة العلم بالحديث عن الاتجاه نحو علم جديد، لعله علم عبد الكريم قاسم الذي رأيته مرفوعا في مناسبات كردية، إذ أنني أتصور أنه تناقضَ مع دوره كرئيس لكل البلاد وتصرف بتحيز واضح لخصمه القديم، وبدا كلاهما في صورة تكامل مزرٍ توزع فيه الأدوار بينهما على حساب المستقبلٍ العراقي.

وواضح أن وجود الاحتلال يُسهل الدسائس والمؤامرات التي تستهدف العراق، عربه وكرده وتركمانه وآشورييه في وقت واحد، ولذا أتصور أن وجود قوات أممية قوية هو المخرج من المأساة العراقية اليوم، لأنه ضمان إجراء مصالحة خارج إطار وجود أجنبي متحيز لهذا على حساب ذاك.

وإذا كان لا بد من انفصال الشمال فليكن ذلك في إطار الاحترام المتبادل للاختيارات والمصالح، لأن الإنسان لا يختار جاره الجغرافي، والنظرة المستقبلية الواعية تتطلب حكمة أكثر في التعامل مع الأحداث، تدرك بأن ما هو سر اليوم لن يكون كذلك غدا أو بعد غد، وتعرف بأن أسلوب الابتزاز قد يعطي نتائج آنية هامة ولكنه قنبلة موقوتة لا يعرف أحد متى تنفجر، حتى من قام بإعدادها.

وأعترف أنها نظرة من بعيد لا تتجاهل أن أهل مكة أدرى بشعابها.

* وزير سابق وكاتب من الجزائر

علم الوطن واعلام الطوائف والاعراق

عبد الرحمن مجيد الربيعي*

■ عندما اعلن مسعود البارزاني تمرده على العلم الوطني العراقي ليرفع بدلا عنه علما آخر سماه علم كردستان وحجته في هذا ان العلم العراقي هو العلم الذي رفعه الجيش في قتاله للاكراد جاءت الردود قوية ومن جهات لم يتوقعها الزعيم القبلي الكردي، اذ ان الاكراد الذين نالوا تحت ظل الاحتلال الامريكي للعراق اكثر مما كانوا يحلمون به وان دعمهم اللامتناهي للاحتلال يقابله دعم من الاحتلال لهم، ولنتذكر حفاوة الزعيمين القبليين الطالباني والبارزاني بأول مندوب للاحتلال غارنر الذي ارقصوا به بعض الشباب الاكراد في الدبكات الفولكلورية الشهيرة، ولنتذكر ما قاله وقتها بانه يحس وكأنه في وطنه ورد الطالباني عليه بانه في وطنه فعلا.

ولننظر لقرار بارزاني الذي سمي برئيس اقليم كردستان فهو غير معزول عن محاكمة الرئيس صدام حسين في ما سميت قضية الانفال وتهييج المجموعات الكردية التابعة للبارزاني والطالباني في اوروبا وامريكا تأييدا لمحاكمة الرئيس صدام وتحميله مسؤولية ما جرى في عملية الانفال هذا عدا المظاهرات والتحشدات داخل المدن الكردية.

اذ ان قرار البارزاني بانزال العلم الوطني العراقي جرى توقيته مع المحاكمة ليكون الوقع اخف، ولكن ما حصل العكس وفي هذا دليل جديد بان زعماء الاكراد كانوا وما زالوا قصيري النظر اذ انهم اعتقدوا بان الامور صارت سانحة لهم لقضم المزيد من ارض الوطن العراقي في اهم المدن خاصة الموصل وديالى والكوت دون ان ننسى كركوك التي كردوها بالعنف ويريدون اجراء استفتاء كردي على جعلها عاصمة لكردستان، هكذا!

ونقول هنا: صحيح ان الاحداث تتراكم في العراق منذ ضربه عام 1991 وحصاره ثم احتلاله عام 2003 وتحولت هذه الاحداث الى كوارث وفظاعات لم يعرفها شعب اخر ودفع الثمن باهظا، من دمار، وجثث مقطوعة الرؤوس وقتل على الهوية.

وكان الزعيمان الكرديان مساندين للقوى التي ضربت العراق وحاصرته عام 1991 بل واستغلا هذا الوضع ليعلن كل منهما حكومته الخاصة وليقتل بيشمرغة احدهما بيشمرغة الآخر في صراع على التهريب وريع المعابر ومناطق النفوذ، وقد رجحت كفة الطالباني حيث احتل عاصمة البارزاني اربيل وقال كلمته المشهورة التي لا ندري ان كان البارزاني قد نسيها ام لا، وهي انه لن يجعله يرى اربيل حتى في الناضور!!

واضاع البارزاني مناطق نفوذه ولم يبق له الا سلوك طريق والده الذي هرب الى الاتحاد السوفييتي وظل هناك منفيا لولا زعيم ثورة 14 تموز/ يوليو المرحوم عبد الكريم قاسم الذي اعاده معززا مكرما ولم يحفظ له الود اذ ما ان استقر به المقام حتى عاد الى عادته القديمة واعلن العصيان على السلطة المركزية فما كان من عبد الكريم قاسم الا ان ارسل الجيش لقتاله.

اختار البارزاني الابن حلا آخر لانه يعرف جيدا انه الحل الاكثر نجاعة وذلك باستنجاده برئيس بلاده صدام فهو وحده القادر على تحجيم الطالباني وايقاف طموحاته الشوفينية، وهذا ما كان فهرب بيشمرغة الطالباني وحرر الجيش الوطني العراقي اربيل واعاد البارزاني اليها، عاد بحماية العلم نفسه الذي انزله ليرفع بدلا عنه علما وصفه بانه علم كردستان.

لقد ذكره كل المتحدثين في وسائل الاعلام وكتاب التعليقات بهذه الواقعة الحية القريبة العهد اذ انها جرت عام 1996 وشمال العراق ضمن المنطقة الشمالية التي قسم الامريكان العراق الى ثلاث مناطق شمال، وسط، وجنوب. ومع هذا لم يأبه الرئيس صدام بقرار امريكا وارسل الجيش الذي عاد بمئات الجواسيس الذين كانوا متواجدين في المنطقة معشش فيها كالغربان للتآمر على الوطن.

ورأينا في الفضائيات بعض المعلقين الاكراد وهم يستهينون بالعلم الوطني ويسميه احدهم مجرد قطعة قماش او خرقة، هكذا! وهذا التشبيه هو من ثمار التربية العنصرية العمياء التي تربوا عليها، وليقول معلق كردي آخر من الفصيلة نفسها: لا شيء مقدسا لا الجغرافيا ولا الحدود.

ولكن الوطنيين العراقيين من كل الانتماءات لهم رأي يخوّن هؤلاء لانهم استغلوا محنة الوطن ابشع استغلال، ولهم رأي ان العلم الوطني رمز موحد للشعب وهو خط احمر لن يقربه احد، وان الجغرافيا مقدسة ولا احد يقدر على تجاوزها! ثم ان الشوفينيين الاكراد لم تقاتلهم الحكومة المركزية في عهد الرئيس صدام تحت راية العلم الذي قرروا استبداله لهذا السبب بل وقاتلتهم قبله تحت علم 14 تموز/ يوليو ايضا وتحت العلم الملكي كذلك اذ ان تمردهم متواصل وانهم كانوا دائما ومنذ قيام دولة العراق الحديث عام 1921 (بنادق للايجار) على حد وصف احد السياسيين البارزين يمكن كراؤها لإقلاق الحكومة المركزية.

ونشير هنا الى ان العراق المحتل المكسور اليد والجناح، المفطور القلب لا يجري نهش رايته الوطنية فقط بل وحتى نشيده الوطني وسلامه الجمهوري وقد رأينا بعض ادوات الاحتلال وعدته في احدى الفضائيات يتحدثون بكراهية عنهما، وسمعنا من يقول ان النشيد الوطني السابق من وضع وتلحين الاخوين فليفل وهما فلسطينيان وهذا لا يجوز، والنشيد الحالي هو من وضع الشاعر السوري شفيق الكمالي. رغم ان الكمالي رحمه الله عراقي وكان وزيرا للثقافة والاعلام ثم وزيرا للشباب فمؤسسا لمجلة «افاق عربية» ورئيسا لمجلس ادارتها وانه ليس هناك من ضير ان كان واضعا النشيد من هذا البلد العربي او ذاك، فكلها بلدان عربية واحدة فرقتها وجزأتها اتفاقية سايكس ـ بيكو. والهم ان لا يكون واضعهما صهيونيا او من احدى دول الاحتلال ورأينا كيف قدم هؤلاء مشروع علم عراقي كان اقرب الى علم اسرائيل بالوانه وخطوطه منه الى اي علم عربي آخر!

عرس (بنات آوى) الذي يعيشه العملاء والسماسرة اقترب من نهايته، وتحول الى كابوس يحرقهم والبقاء للوطن ولرموزه الجميلة رغم كل هذا الكيد اللئيم.

* روائي من العراق يقيم في تونس

ايلول «سبتمبر» 11: خمسة أعوام من حروب التحريض والتدمير ضد العرب والمسلمين

سمير جبور*

■ وتحل الذكرى الخامسة المشؤومة لاحداث 11 ايلول/ سبتمبر سنة 2001 التي اصبحت عنوان مأساة القرن الواحد والعشرين. في ذلك اليوم الرهيب تم تنفيذ ما خططت له العقول الشريرة قبل سنوات، لتغرق العالم في اتون صراعات حضارية وثقافية وحروب تدميرية تحت عنوان «الحرب على الارهاب الدولي» التي بشر بها بنيامين نتنياهو قبل انهيار البرجين بسنوات طويلة.

ومن دون ايلول/ سبتمبر 11 كيف كان من الممكن احتلال افغانستان وتدمير العراق ومواصلة شن حرب «افناء شعب» (جينوسايد) ضد الشعب الفلسطيني ومن ثم العودة الى تدمير لبنان والتأهب لشن حروب تدميرية ضد ايران وسورية والحبل على الجرار؟

خمس سنوات حافلة بالاحداث الدامية للمحافظة على جذوة ذلك العمل الجهنمي ليتحوّل الى «هولوكوست» جديد اذ ان الهولوكوست القديم كاد يفقد اسنانه بعد ان تراكم عليه غبار سبعة قرون. كان لا بد من «محرقة» جديدة يكتوي بها العرب والمسلمون أجمعين كما اكتوى الشعب الفلسطيني بنيران المحرقة القديمة التي وقعت على الارض الالمانية. ويضيع الوطن الفلسطيني ويتدمر المجتمع الفلسطيني تحت مسوّغ التعويض على ضحايا المحرقة الالمانية. هتلر يرتكب الجريمة ونحن ندفع الثمن! ونقع نحن ضحايا الضحايا.

وتحت ذريعة محاربة «الارهاب» وتحت عنوان «المحرقة» الامريكية التي وقعت على ارض نيويورك وواشنطن يجري تدمير الوطن العربي بأسره. ومن أجل تحقيق مآرب شريرة يسقط 3000 ضحية أميركية بريئة ومئات الالاف من المواطنين العرب والمسلمين الابرياء. وهكذا يسيل الدم الغربي في نيويورك وواشنطن ولندن ومدريد ولا يزال النزف العربي مستمرا في بغداد وعمان ولبنان على مذبح أطماع امبراطورية. وقبل ان تنطفئ جذوة احداث سبتمبر 11 كان لا بد من افتعال المزيد منها. وكان لا بد الا ان تبحر سفينة سبتمبر 11 من عاصمة الى اخرى قبل أن ينسى العالم ما حدث على الارض الامريكية. ومنذ سنوات خمس ومحطتا «سي ان ان» و«فوكس نيوز» تنفثان سموم التحريض ضد العرب والمسلمين تحت عنوان «محاربة الارهاب» وتبشران بوقوع المزيد من أعمال هذا المسلسل الجهنمي. وكاد العالم ان ينسى فلسطين ومأساة الفلسطينيين. وكاد العالم أن ينسى ما يتربص به من أخطار وكوارث طبيعية.

كان لا بد من الهاء عالم القرن الواحد والعشرين عن كل عمل بناء من اجل محاربة الفقر والامراض والانصراف الى هموم البيئة. كان لا بد من تحويل كل جهد دولي لتحقيق السلام والعدل في المناطق الساخنة الى محاربة الاشباح. وكان لا بد من اغراق العالم في ترهات مفتعلة.. انظروا الى ما يجري في المطارات من ادعاءات وفزاعات. تارة يزعمون ان «الارهابيين» يستخدمون المواد السائلة كأسلحة تدميرية وعندما لا يجدون الدليل على وجود ادوات تفجير مرئية يلجأون الى الادعاء ان السوائل اصبحت متفجرات ومن يستطيع أن يثبت ان هذه السوائل ما هي سوى مياه للشرب. وتارة اخرى يزعمون ان السيدات يستخدمن زجاجات الحليب للانتحار مع أطفالهن. ولو استمعتم الى محرض الـ«سي ان ان» وهو يملأ الدنيا صراخا كيف ان سيدة مسلمة خبأت المواد المتفجرة في زجاجة الحليب لطفلتها وارادت الانتحار معها، لأدركتم الرسالة التي ارادوا ان يبثوها تحت شعار محاربة الارهاب.

واستخفوا بالعقول ونشروا الهستيريا بين ملايين المسافرين وبسحر ساحر تحولت معاجين الاسنان الى قنابل مفخخة وكريمات الشعر الى مفرقعات. وينتشر الاضطراب وتغلق الاسواق الحرة في المطارات والموانىء وأوشك اقتصاد باسره على الانهيار. ومرة أخرى ينسى العالم همومه. ويواصل أعداء العرب والمسلمين استغلال هذا العمل الشريرمن اجل تمرير مخططاتهم.

واذا كان المدبرون لاحداث سبتمبر 11 قد نجحوا ـ ولو الى حين ـ في اشعال الفتن الطائفية واذكاء نار صراع الثقافات والحضارات وانزال الضربات ضد الوجود العربي والاسلامي في العالم الغربي، فان الذين ارادوا قطف ثمار هذه «المحرقة» فشلوا في تحقيق اهدافهم التوسعية الاستعمارية. فشلوا في العراق وفشلوا في افغانستان وفشلوا في لبنان وفشلوا في فلسطين وسيفشلون في سورية وايران. يدمرون العراق ولبنان وفلسطين وفي الوقت ذاته يتحدثون عن نشر الديموقراطية. وعبثا يحاول العقل البشري استشفاف معالم «الشرق الاوسط الجديد» بين الانقاض..

وتمر السنون وسيواصل المحرضون على الحروب ـ المحافظون الجدد اصحاب «مشروع القرن الامريكي الجديد» واجهزة الاعلام التابعة لهم التلويح بما حدث في سبتمبر 11 من اجل تذكير العالم بان العرب هم الجناة الحقيقيون وأن كل همهم نشر الذعر والارهاب وليس حماية الاوطان وتحرير الثروات. ويزعم اولئك الاشرار بان العرب يتمتعون بقدرات تكنولوجية وفنية هائلة على القتل والتدمير.

ولكن جوقة كبيرة من العلماء والمهندسين واساتذة الجامعات (نحو 75 من كبار علماء الفيزياء ورواد الفلسفة العلمية) لا يصدقون الرواية الرسمية ازاء ما حدث قبل خمس سنوات. فهم يعتبرون ان المزاعم الرسمية تتنافى مع قوانين كل العلوم. انهم ماضون في البحث عن الحقيقة وهم يجمعون الادلة والبراهين على أن حفنة من القابعين وراء صخور افغانستان هم أعجز من تنفيذ عمل كهذا في غاية التعقيد يحتاج الى قدرات علمية هائلة وتخطيط محكم.

ومتى ظهرت الحقيقة وافتضح أمر المتآمرين، وعندما يقوم الدليل على أن الغاية الحقيقية لذلك العمل الشرير الذي نفذ قبل 5 سنوات هو توفير الذريعة من أجل شن الحروب العدوانية على شعوب الشرق الاوسط وتدمير قدراتها القائمة والمحتملة، عندها سيتغير منحى العلاقات الدولية وسيندحر المتآمرون وسوف يبزغ فجر جديد، وعندها سيقوم شرق اوسط جديد تبنيه سواعد ابنائه بالعرق والدم.

* كاتب من فلسطين يقيم في كندا